النفي والإثبات في نقد الباقلاني

قراءة في (إعجاز القرآن)

د. حمود حسين يونس

المقدمة:

لقد بذل نقَّادنا القدماء جهودًا حثيثة، تستحق الإعجاب والتقدير والثناء، وتبعث على الرضا والسرور بمنجزاتهم النقدية، إلا أن ذلك لا يمنع من أن نجد في بعض ما أنتجوه شيئًا من الخلل أو القصور هنا أو هناك، عند من يمكن أن نسميهم بالصف الثاني من النقَّاد خاصة ، وهم الذين يحتل النقد الأدبي لديهم مرتبة ثانية أو ثالثة في سلم اهتماماتهم العلمية، فجمعوا بين النقد وعلوم أخرى غيره، بل لعل اهتمامهم بتلك العلوم فاق اهتمامهم بالنقد، وغلب عليه. ومن هنا فإننا قد نقع على بعض القصور الذي يطالعنا في كتبهم بين الحين والآخر، ولكنه قصور لا يصل بنا، ويجب ألاّ يصل بنا، إلى درجة الاستهانة بما أنجزوه، أو التقليل من الإعجاب بما قدَّموه للثقافة العربية عامة، والفكر النقدي خاصة.

ولعل من أبرز تجليات ذلك القصور أو الخلل، غياب الموضوعية والحيادية في قراءة النصوص الأدبية عند بعض النقَّاد، وعدم الاهتمام بتأصيل حقيقي لمصطلحات ذلك النقد، وغياب الدقة في استعمال تلك المصطلحات أحيانًا، وحضورها حينًا، والركون إلى أحكام نقدية ذوقية عامة وغائمة في آن معًا، ذات دلالات خاصة بالناقد، وحبيسة في ذهنه، ولا تُدرك مدلولاتها بدقة في معظم الأحيان إلا من قبل الناقد نفسه الذي أطلقها، وتبقى أي محاولة

لفحصها أو تأويلها، هي مجرد محاولة قد لا تنتهي إلى النتائج التي تُرضي عقل المتلقي قارئًا أو ناقدًا.

وقد يكون من أخطر ما يصادفنا عند بعض النقاد، هو محاولة إسقاط الأحكام النقدية الجاهزة، والمعدَّة سلفًا في ذهن الناقد على النصوص الأدبية، لتكون العملية النقدية عملية معكوسة. فبدلاً من أن يكون النص الأدبي هو الأصل والمنطلق في القراءة النقدية، ويأتي بعد ذلك وفي مرحلة تالية الحكم النقدي الموضوعي تتويجًا لتلك القراءة، ونتيجة لها، نجد أن الحكم النقدي السابق الإعداد، والجاهز سلفًا، هو الذي سيُسقط على النص الأدبي، وسيحاول الناقد أن يلوي عنق النص الأدبي قسرًا، ويرغمه على مسايرة الحكم النقدي، ويُحوّل معطياته جميعًا المصلحة ذلك الحكم، ولمصلحة المعطى الثقافي، والمخزون الفكري لدى الناقد. وهكذا فإن النتيجة قد سبقت المقدمة، وعُرف الفائز قبل بدء السباق، ولا شك في أن قراءة كهذه القراءة، هي قراءة ناقصة، بل قراءة جائرة أيضًا، لأنها تظلم النص الأدبي، وتظلم مبدعه، وتنأى عن موضوعية النقد.

العرض:

وفي نقد أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (٤٠٣هـ) في كتابه«إعجاز القرآن» قد نلمح بعضًا من هذا الذي قدَّمنا به، فقد ألَّف كتابه هذا ليُثبت إعجاز القرآن، وتفوقه على غيره من أساليب الكلام عند العرب، وفنون القول لديهم، وقد سلك في دراسته سبلاً مختلفة، واتبع طرقًا شتى، لعل الجامع لها، والمشترك فيما بينها، هواعتماده على مبدأين اثنين، يظهران للدارس المتأني في أثناء دراسته للكتاب، وإمعان النظر فيه، وهما (النفي والإثبات) فديدنه في

معظم كتابه هو نفي أمر لإثبات آخر، أو إثبات رأي لنفي آخر، فقد اعتمد على ثلاثة وجوه لإثبات الإعجاز القرآني:

الأول: الإخبار عن الغيوب والصدق والإصابة في ذلك.

والثاني: ما في القرآن من قصص الأولين وسِيَرِ المتقدمين.

والثالث: نظم القرآن وتأليفه ورصفه[١].

والناظر في هذه الوجوه يرى أنها غير جديدة كل الجدة، فقد سبق أن عرض لها بعض العلماء الذين بحثوا في قضية الإعجاز القرآني مثل علي بن عيسى الرماني (٣٨٦هـ) في رسالته (النكت في إعجاز القرآن) الذي رأى أن إعجاز القرآن يمكن أن يُستدل عليه من سبع جهات من بينها البلاغة. ثم بيَّن أن البلاغة على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة؛ فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس، وانتقل بعد هذا ليفصِّل القول فيما أجمله، فقسم البلاغة إلى عشرة أقسام هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان[٢]. وحمد بن محمد الخطابي (٣٨٨هـ) في رسالته (بيان إعجاز القرآن) الذي رأى أن البلاغة تُقسم إلى ثلاثة أقسام «فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل... فالقسم الأول أعلى طبقات البلاغة وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات

(1) إعجاز القرآن: ٣٣- ٣٥.

(2) انظر (النكت في إعجاز القرآن): ٧٥-٧٦.

القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة»[٣]. وإذا كان هنالك من شيء جديد عند الباقلاني فهو في طريقة بحثه الوجه الثالث من هذه الوجوه، وكيفية عرضه له، والتدليل عليه، وهو ما يهمنا في بحثنا هذا، فقد رأى أنه يمكن قسمة هذا الوجه إلى عشرة أوجه، تمثِّل في مجموعها إعجاز القرآن، وتبرهن على بديع نظمه، وهي:

الوجه الأول: أن نظم القرآن مباين لنظام جميع كلام العرب، ومغاير لأسلوب خطابهم، ولما كان مألوفًا عندهم من أساليب الكلام، كالشعر والسجع والترسل وغير ذلك.

و**الثاني**: أنه ليس للعرب كلام مشتمل على الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والحكم الكثيرة على هذا الطول، وذلك المقدار.

و**الثالث**: خلو نظم القرآن من التفاوت، وبعده عن التباين، على تضمُّنه للعديد من الوجوه التي يتصرف فيها، من قصص ومواعظ وأحكام وأوصاف ...

و**الرابع**: هو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بينًا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وليس كذلك القرآن، فهو يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب...

و**الخامس**: هو أن نظم القرآن ليس معجزًا للإنس فقط، بل هو معجز للجن كذلك، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كَعَجْزنا.

و**السادس**: وجود أنواع الخطاب جميعًا في القرآن، كالبسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح...

---

(3) بيان إعجاز القرآن: ٢٦.

والسابع: مناسبة الألفاظ للمعاني، ولاسيما المعاني المبتكرة والمستحدثة.

والثامن: فصاحة ألفاظه، وحسن اختيارها.

والتاسع: افتتاح بعض سور القرآن بالحروف، ليُعرف أن كلامه منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

والعاشر: خروجه عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة[٤].

ولإثبات هذه الوجوه والتدليل على صحتها، والبرهنة على سلامتها، راح الباقلاني ينفي أمورًا، ويُثبت أخرى، فقد خصَّص فصلاً لنفي الشعر من القرآن[٥]، ولنفي الشاعرية عن الرسول ﷺ مستشهدًا على ذلك بآيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وما عَلَّمناهُ الشِّعرَ وما يَنبَغِي لَهُ، إنْ هُوَ إلاّ ذِكرٌ وقُرآنٌ مُبِينٌ﴾[٦] ليُثبت بعد ذلك أن نظم القرآن خارج عن قوانين الشعر، ومغاير له[٧] كما أنه خصَّص فصلاً آخر لنفي السجع من القرآن، منبِّهًا على أن ما زعمه بعضهم من وجود السجع فيه زعم غير صحيح، لأنه «لو كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولوكان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز»[٨]، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن البديع متسائلاً:«هل يمكن أن يُعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمَّنه من البديع؟»[٩]، فذكر بعضًا من فنونه وأنواعه، مستشهدًا عليها من القرآن والشعر لينتهي بعد ذلك إلى نفي إمكان

---

(4) إعجاز القرآن: ٣٣ – ٤٧.

(5) نفسه: ٥٧.

(6) يس: ٦٩.

(7) يس: ٦٩.

(8) إعجاز القرآن: ٧٦ وما بعدها

(9) إعجاز القرآن: ٦٦.

استفادة الإعجاز وإثباته اعتمادًا على أبواب البديع ووجوهه «لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه، صح منه التعمل له وأمكنه نظمه». مخالفًا بذلك بعض العلماء الذين ذهبوا إلى إمكان إثبات إعجاز القرآن اعتمادًا على ما تضمَّنه من صنوف البديع، وفنونه المختلفة، كالرماني مثلاً الذي كانت بعض فنون البديع إحدى وسائله في إثبات الإعجاز القرآني كما سبق أن رأينا[١٠].

ويتابع الباقلاني دراسته لإثبات الإعجاز، معتمدًا على منهج الموازنة بين القرآن الكريم، وأساليب الخطاب عند العرب، ليُثبت مباينة القرآن لتلك الأساليب على تنوعها وتعددها من جهة، وليُثبت أيضًا عدم التفاوت في النظم القرآني على طوله وكثرة موضوعاته وتنوع أغراضه، بخلاف فنون القول الأخرى التي لا تخلو من الكثير من التفاوت والخلل، حتى عند كبار البلاغيين ومشاهير الشعراء من جهة أخرى، فكثرت موازناته وتنوعت، لتشمل الكثير من أساليب الكلام، وأنواع الخطاب من نثر وشعر، ليُعرف الفرق بينها و«بين الكلام الصادر عن الربوبية، الطالع عن الإلهية، الجامع بين الحُكْم والحِكَم، والإخبار عن الغيوب والغائبات، والمتضمن لمصالح الدنيا والدين ....»[١١].

١- بين القرآن والكتب السماوية الأخرى:

وازن الباقلاني موازنة عجلى بين القرآن وبعض الكتب السماوية الأخرى،

---

(10) نفسه: ١٠٧.

(11) لعل من نافلة القول أن أشير هنا إلى أن البديع غدا نظرية مستقلة في إثبات الإعجاز القرآني على يدي ابن أبي الإصبع المصري (٦٥٤ هـ) في كتابه (بديع القرآن) الذي برهن فيه على الإعجاز القرآني انطلاقًا من أبواب البديع وفنونه، وتفوق ما جاء منها في القرآن على ما ورد في كلام البشر.

كالتوراة والإنجيل والصحف من جهة الإعجاز، فذكر أن تلك الكتب ليست معجزة في تأليفها ونظمها، وإنما يقع إعجازها من جهة ما فيها من الإخبار عن الغيوب، وشرح ذلك بمجموعة من الأسباب منها: أن الله سبحانه لم يصف تلك الكتب كما وصف القرآن من حيث الإعجاز، ولم يقع فيها التحدي كما وقع في القرآن، إضافة إلى أن اللسان الذي نزلت فيه تلك الكتب لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة، ما يقع فيه التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز، ولكنه يتقارب، وضرب مثلاً على ذلك وهو أننا لا نجد في تلك الألسنة الأسماء الكثيرة للشيء الواحد، أو الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة كما في العربية، إضافة إلى التصرف في الاستعارات والإشارات وغير ذلك(١٢).

وأعتقد أن مثل هذه الموازنة بين القرآن والكتب السماوية الأخرى من جهة الإعجاز، عمل غير مجدٍ ولا يحمل الكثير من الفائدة، وذلك لأن المعروف أن لكل نبي معجزة، وعادة ما تكون هذه المعجزة من جنس ما برع فيه القوم، ونبغوا فيه في زمن نزول المعجزة، ومن هنا وجدنا أن معجزة موسى عليه السلام كانت السحر لأن قومه كانوا متفوّقين في هذا الجانب، وكانت معجزة عيسى عليه السلام في ميدان الطب عامة، وهو المجال الذي كان قد برع فيه الناس آنذاك، في حين أن معجزة الرسول ﷺ كانت في ميدان البلاغة والفصاحة، وذلك لما عُرف عن حال العرب من تفوقهم في هذا الميدان، ونبوغهم فيه، واهتمامهم به، فجاء القرآن مُعجزًا للناس من جهة ما هم نابهون فيه، ومتفوقون في مجاله، ومن هنا نرى أنه لا فائدة تُرتجى من موازنة إعجاز القرآن

(12) إعجاز القرآن: ١٢٦.

بإعجاز الكتب السماوية الأخرى، لأن تلك الكتب - كما ذكر الباقلاني نفسه – لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة كما هو الحال بالنسبة للقرآن الكريم[١٣].

٢ – بين القرآن والنثر:

أكثر الباقلاني من الموازنة بين القرآن والنثر بمفهومه الواسع، أي بما يتضمنه من خطب الرسول ﷺ وأحاديثه ورسائله، وكذلك خطب الصحابة، وأقوال البلغاء وكتابات الفصحاء، وغير ذلك مما يدخل ضمن إطار النثر.

أما الموازنة بين القرآن الكريم وخطب الرسول ﷺ ورسائله فقد اهتم بها الباقلاني لسببين رئيسين:

الأول: إثبات تفوق التأليف الإلهي على التأليف النبوي، والانتهاء إلى أن الأول منهما معجز وليس كذلك الثاني، **والثاني**: الرد على من يدَّعي أن القرآن ليس نظمًا إلهيًّا بل هو من نظم الرسول ﷺ وتأليفه، وقد أورد لإثبات ذينك الأمرين، مجموعةً من خطب الرسول ﷺ ورسائله دون أن يعلِّق عليها بشيء، ثم انتهى بعد ذلك إلى القول مخاطبًا قارئه: «.... فإن كان في الصنعة لك حظ، أو كان لك في هذا المعنى حس، أو كنت تضرب في الأدب بسهم، أو في العربية بقسط،.... فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ – في خطبه ورسائله – وما عساك تسمعه من كلامه، ويتساقط إليك من ألفاظه، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بونًا بعيدًا، وأمدًا مديدًا وميدانًا واسعًا، ومكانًا شاسعًا»[١٤].

---

(13) إعجاز القرآن: ٣١- ٣٢.

(14) إعجاز القرآن: ٣١-٣٢.

وفي رده على من ينسب نظم القرآن للرسول ﷺ يقول: ((تيقن أن الخطب يُحتشد لها في المواقف العظام، و المحافل الكبار، ... والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه[١٥]، ويشمِّر لها عن جدٍّ واجتهاد، فكيف يقع بها الإخلال ؟ وكيف تعرض للتفريط ؟ فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهي، و أن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي))[١٦].

فالباقلاني يبيِّن أن الخطب والرسائل هي مما يهتم بها الكاتب كثيرًا، ويحشد لها طاقاته الفكرية والعقلية جميعًا، ويُهيئ لها من أدواتها وسبل نجاحها الشيء الكثير، ومن هنا فإنها تمثِّل ذروة كتابة الكاتب، وقمة إبداعه، ومع ذلك فإننا لو نظرنا في خطب الرسول ﷺ لتبيَّن لنا الفرق الكبير فيما بينها وبين البيان الإلهي نظمًا وبلاغة وفصاحة، ويرى الباقلاني الشيء نفسه عندما ينظر في بعض خطب الخلفاء الراشدين، وبعض الصحابة والبلغاء، فقد أورد لهم مجموعة من الخطب ثم قال مخاطبًا متلقيه:

((... ثم انظر - بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل ــ في ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة))[١٧].

إذًا فهنالك فوارق بين كلام الناس في كل ميدان من ميادين الكتابة والتأليف،

---

(15) نفسه: ١٣٥ - ١٣٦.

(16) جراميز الرجل: جسده وأعضاؤه، وجمع فلان لفلان جراميزه: إذا استعد له، وعزم على قصده، وجمع جراميزه إذا تقبض ليثب (لسان العرب) مادة: جرمز.

(17) إعجاز القرآن: ١٣٦.

في الخطابة والشعر والترسل وغير ذلك، وقد يتفوق بعضهم على بعض في بلاغته وفصاحته وحسن تأليفه، فتجد بينهم من التباين ما تجد، وتقع عندهم على التباين علوًا أو سفلاً، فيرتفع بعضهم ببلاغته ويسمو، ويقل حظ الآخر ويهبط وهكذا، وبالنظر في كلام الناس جملة، وفي القرآن، يتبيَّن لنا الفرق بينهما، فالقرآن لا تتفاوت سوره، وآياته، فهو مُعجز للناس جميعًا.

والباقلاني في هذه الموازنات التي يعقدها بين النثر خطبًا ورسائل، و بين القرآن لا نجده يُفصِّل فيها، فيتناول بعض القضايا الفنية، أو العناصر المكونة لها، فيعكف عليها بالشرح والتحليل والتعليل، لينتهي إلى أحكام دقيقة معلَّلة تستند إلى مقدمات منهجية تؤدي إلى نتائج علمية، وجلّ ما فعله في هذه الموازنات هو أنه كان ينطلق من مسلّمة هو مؤمن بها سابقًا، وهي أن القرآن معجز في بلاغته ونظمه وتأليفه، ومن هنا فإنه قد يرى نفسه غير مطالب بإثبات ذلك بالبراهين والأدلة، أو على الأقل لنقل: إنه لم يفعل هذا هنا، ونعتقد أنه كان ينبغي ألا يُعفي نفسه من ذلك، خصوصًا لأنه يدافع عن فكرة الإعجاز القرآني، ويريد إثباتها لمن ينكرها، ولا يقر بها، و ليس يكفي أن نقول لمنكر أو معاند: تأمل القرآن، وانظر الفرق بينه و بين هذه الخطبة أو تلك الرسالة، فلا بد أنك ستجده وتقع عليه، دون أن نقدِّم له من الأدلة والبراهين، ما يجعله يؤمن بفكرة إعجاز القرآن إيمانًا قاطعًا مبنيًا على الحجج التي تؤدي إلى اليقين الذي لا يساوره شك، و إلى الاقتناع الذي لا يعتريه تردّد.

قد لا نحتاج إلى مزيد من الجهد أو الفهم حتى نكتشف تلك النبرة الإنشائية الخالصة في خطاب الباقلاني النقدي، واعتماده على ما يمكن أن يسمى بالتأويل الذوقي أكثر من اعتماده على تأويلات عقلية. وهذا النمط

من التأويل، على ما يقدِّمه من فوائد، لا يمكن إغفالها أو تجاهلها في قراءة النص، فإن تلك الفوائد قد تبقى غير مقنعة للقارئ الذي يبحث عن أسباب وعلل عقلية ومنطقية، تؤدي به إلى الاقتناع الذي لا يخامره ريب، وإقناع القارئ لا يكون بالتعاطف الوجداني مع النص، بل يحتاج إلى قوانين منطقية، و أدلة موضوعية منضبطة بقوانين اللغة المختلفة.

ومما يندرج كذلك ضمن النثر ما نُقل عن مسيلمة الكذاب، وما ادَّعاه من معارضة القرآن، وقد أشار الباقلاني إلى ذلك إشارة سريعة، وأورد بعضًا من النصوص التي نُقلت عنه، للتدليل فقط على سخافتها وركاكتها، لأنه كان قد أعلن أن كلام مسيلمة «أخسُّ من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر به»[١٨]. ولم يُعِره اهتمامًا كبيرًا كالذي نجده عند بعض الباحثين في الإعجاز كالخطابي مثلاً الذي أطال في الرد على هذا الدَّعِيّ بما لا يُحتاج إلى مثله[١٩].

٣ – بين القرآن والشعر:

احتفل الباقلاني بالموازنة بين القرآن الكريم والشعر احتفالاً كبيرًا، واهتم بها اهتمامًا فاق اهتمامه بالموازنة بين القرآن وفنون النثر المختلفة، ونالت من جهده النصيب الأعظم، واحتلت القسم الأكبر من كتابه، وقد بيَّن سر احتفاله بهذا الأمر، بعد أن انتهى من الموازنة بين الخطب والرسائل وبين القرآن، إذ قال مخاطبًا القارئ: «فإن خُيِّل إليك، أو شبه عليك، وظننت أنه يُحتاج أن يُوازن بين نظم الشعر والقرآن، لأن الشعر أفصح من الخطب، وأبرع من الرسائل، وأدق مسلكًا من جميع أصناف المحاورات... وسوّل إليك

(18) إعجاز القرآن: ١٥٤.

(19) إعجاز القرآن: ١٥٦.

الشيطان أن الشعر أبلغ وأعجب، وأرق وأبرع وأحسن الكلام وأبدع، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين، وكلام بين المحقِّقين»[٢٠].

وقد عمد الباقلاني لتحقيق هذه الغاية في المقام الأول، إلى قصيدتين اثنتين أولاهما لامرئ القيس وهي معلقته المشهورة التي مطلعها:

قِفا نَبكِ من ذكرى حَبيبٍ ومَنزِلِ   بسقط اللّوى بين الدخولِ فحَومَلِ

وثانيتهما للبحتري وهي قصيدته ذات المطلع:

أهلاً بذلكم الخيالِ المقبِلِ   فعلَ الذي نهواهُ أو لم يَفعَلِ

وأما اختيار الباقلاني لهاتين القصيدتين فإنه لم يكن اختيارًا عفويًا أو اعتباطيًا، بل إن له أسبابًا ودوافع بعضها يرجع إلى القصيدة نفسها، وبعضها الآخر يعود إلى صاحب القصيدة و ناظمها. فأما قصيدة امرئ القيس فقد ذكر أنه «متفق على كبر محلها، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة، والمعروفين بالحذق في البراعة»[٢١].

فالباقلاني يُشير إلى أن ثمة إجماعًا على أن القصيدة تتصف بالجودة والحسن في ألفاظها ومعانيها، وأن صاحبها يُعدّ أيضًا واحدًا من الشعراء الموصوفين بالتقدم والبراعة، و له الحظوة والسبق في الكثير من المعاني، ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن امرأ القيس كان واحدًا من كبار الشعراء، وقد عدَّه كثير من النقَّاد السابق والفاتح للكثير من المعاني التي ابتدعها واتبعه فيها الشعراء، يقول ابن سلام مثلاً: «...ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها

---

(20) انظر (بيان إعجاز القرآن): ٥٠ وما بعدها.

(21) إعجاز القرآن: ١٥٤.

العرب، واتبعته فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والبكاء على الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ ...»[٢٢]، وهذه الصفات كانت من جملة الأسباب التي دفعت بالباقلاني إلى اختيار امرئ القيس دون غيره من الشعراء.

ولم يقف الباقلاني على أبيات القصيدة جميعًا، بل اختار منها أبياتًا ليست بالقليلة ليطبِّق عليها منهجه في الموازنة بين القرآن والشعر، فتناول واحدا وثلاثين بيتًا مما عدَّه أبياتًا مبتذلة، وستة أبيات مما يعدونه من محاسنها[٢٣]، وبذلك يكون جماع الأبيات سبعة وثلاثين بيتًا من مجموع أبيات القصيدة البالغة سبعة وسبعين بيتًا[٢٤]. وكذلك فَعَل بقصيدة البحتري التي تناول جلها ولم يتناولها كلها، فقد وقف فيها على واحد وأربعين بيتًا من أصل ثلاثة وخمسين بيتًا هي جماع القصيدة و أبياتها الكاملة[٢٥]، وقد وهم الدكتور محمد زغلول سلام فذكر أن الباقلاني وقف على القصيدتين جملة وتفصيلا، يقول: «وأول ما فعله – تطبيقًا لمنهجه – تناول القصيدة جملة، لا أبياتا متفرقة مفردة، وهو عين ما اتبعه مع قصيدة البحتري... وينتقل في كلتا القصيدتين من المطلع حتى النهاية»[٢٦] إذ لم يكن همه الاستقصاء الكامل للقصيدتين فيما يبدو، بل الإشارة إلى ما في أبياتهما من الخلل والقصور، ولينفي عنهما الكثير من علامات الجودة والحسن، حتى ينتهي فيما بعد إلى إثبات تفوق

---

(22) إعجاز القرآن: ١٥٦.

(23) انظر (طبقات فحول الشعراء): ١ / ٥٥.

(24) إعجاز القرآن: ٢٤١ – ٢٧٨.

(25) انظر (ديوان امرئ القيس): ٨ – ٢٦.

(26) انظر القصيدة كاملة في (ديوان البحتري): ٣ / ١٧٣٧ – ١٧٤٨.

القرآن الكريم عليهما بوصفهما ممثلتين للشعر الجيد عامة، ولأفضل أشعار امرئ القيس والبحتري خاصة، وليثبت أيضًا أن أشعار هذين الشاعرين إنما تُوازَن وتُساوى وتعدل بأشعار الشعراء، وتقابل بكلام أضرابهما «فأما أن يظن ظان، أو يتوهم متوهِّم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن» فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق»[٢٧].

وأما عن عمله في هذه القصيدة، فقد لخّصه بأنه سيقف على «مواضع خللها، وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدة تعسفها، وبعض تكلفها، وما تجمع من كلام رفيع، يُقْرَنُ بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي يُقرن بلفظ ملوكي»[٢٨].

فهو سيبيِّن مثالب هذه القصيدة، ويوضِّح عوارها، ويكشف عن النقص الذي يعتور أركانها، والخلل الذي أصاب أجزاءها، منبِّهًا على ما فيها من التفاوت في ألفاظها ومعانيها ونظمها. مع أنه أشار إلى أنه سيقف أيضا على ما فيها من كلام رفيع، ولفظ ملوكي، فإن ذلك بقي في إطار الكلام النظري بوجهٍ عام ولم يشفعه نقده التطبيقي، إذ لانكاد نراه يُشيد بما في القصيدة من محاسن إلا قليلاً، بل ونادرًا أيضًا. والناظر في نقد الباقلاني لهذه القصيدة، المتأمل في حديثه عنها، يحس إحساسًا عميقًا بمدى الجهد الطيب الذي بذله الرجل ولكن في غير موضعه، ويتبيَّن التمحل والتعسف، اللذين أوديا بالباقلاني إلى التحامل على الرجل، وظلمه ظلمًا شديدًا، والتنكر لما في هذه القصيدة

(27) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٢٨٨. وانظر كذلك (نكت الانتصار لنقل القرآن)، مقدمة التحقيق: ٢٩ – ٣٠.

(28) إعجاز القرآن:٢١٦. والآية في سورة الحج: ٣١.

من المحاسن، ولما تضمنته من الصور الرائعة، والمعاني البديعة، التي سبق إليها غيره من الشعراء، فاتبعوه فيها واقتفوا أثره، وساروا على نهجه، وهو يرى «أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة، و أبيات متوسطة، وأبيات ضعيفة مرذولة، و أبيات وحشية غامضة مستكرهة، وأبيات معدودة بديعة»[٢٩]، فالأبيات البديعة هي أبيات معدودة قليلة في القصيدة، على حين الكثرة الكاثرة من أبياتها هي أبيات سوقية مبتذلة... وقد بدأ نقده التطبيقي للقصيدة بما أسماه الأبيات المبتذلة، ثم انتقل بعد ذلك لينتقد ما وسمه بالأبيات البديعة، ولعل إيراد بعض الأمثلة من نقده لهذه القصيدة، يوضِّح لنا مقدار تجنيه على الرجل، وعدم الاعتراف بمحاسنه، التي أقرَّ له بها النقاد، وأثنوا بها عليه، ويقف بنا على تلك النبرة التعميمية في نقده، وغلبة الأحكام النقدية العامة، التي لا ترضي غلة، ولا تشفي علة، فمن نقده للأبيات المبتذلة ما يذكره حول قوله:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل
إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

إذ يعلق قائلاً: «أنت لا تشك في أن البيت الأول قليل الفائدة، ليس له مع ذلك بهجة، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ، وإن كان منزوع المعنى، وأما البيت الثاني فوجه التكلف فيه قوله: «إذا قامتا تضوع المسك منهما» ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبًا على كل حال، فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير، ثم فيه خلل آخر لأنه بعد أن شبَّه عَرْفها بالمسك، شبَّه ذلك بنسيم

(29) نفسه: ١٥٦.

القرنفل، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص»[٣٠].

فالبيت الأول قليل الفائدة ليس له بهجة، وهذا كلام عام غير دقيق في مؤداه أو في دلالته، وفي البيت الثاني يأخذ الباقلاني على امرئ القيس أنه جعل رائحتهما لا تنتشر إلا عند القيام، وهذا تقصير منه، لأنه كان ينبغي أن يجعل الرائحة تفوح منهما في الحالين معًا، في القيام وفي الجلوس. مع وجاهة هذا الرأي، فإن امرأ القيس تنبَّه إلى نقطة ذكية، وهي أن رائحة العطر وغيره تفوح وتنتشر عند القيام والحركة أكثر منها عند الجلوس والسكون، وذلك لأن الهواء في أثناء الحركة سيحمل تلك الرائحة، وينشر شَذاها في المكان، وهذه لفتة ذكية تُحسب له، لا عليه، وهذا ما ذهب إليه الدكتور زغلول سلام فقد أشار إلى تحامل الباقلاني على امرئ القيس في هذا البيت، ورأى أن فيه «لمسة فنية دقيقة ترتكز على كلمة (قامتا) لأنها مبعث الحركة والحياة في الصورة كلها، ولا يخفى ما في القيام من نشر للعطر، فيفوح أريجُه في الجو ، لما تبعثه الحركة من تردد في الهواء فيحمل العطر إلى الأنوف، ولا يتسنى ذلك في القعود والسكون»[٣١].

ويقارن الباقلاني شعر الرجل بأشعار غيره من الشعراء، فهو يرى أن في شعر الخبزرزي ما يفوق قوله:

ففاضت دموع العين مني صبابة   على النحر حتى بلّ دمعي محملي

حُسنًا وجودة، يقول بعد أن أورد البيت السابق: «وأنت تجد في شعر

(30) إعجاز القرآن: ١٨٠.

(31) إعجاز القرآن: ١٦٣.

الخبزرزي ما هو أحسن من هذا البيت وأمتن و أعجب منه»[٣٢]، وليس يخفى على ذي بصيرة، عنده شيء من العدل والإنصاف، ما في هذه المقارنة من ظلم وحيف.

ثم إنه يركّز في بعض نقده على مسألة التخنث في الكلام، وتأنيث الشعر، ويراها عيبًا من عيوب الشعر، وربما دلالة أيضًا على تخنث الشاعر نفسه، وتأثره بأساليب النساء، وطرائقهن في التعبير، فهو يرى أن بيت امرئ القيس:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

«فيه ركاكة جدًّا، وتأنيث ورقة، و لكن فيها تخنيث، ولعل قائلاً يقول: إن كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع و أغزل، وليس كذلك، لأنك تجد الشعراء في الشعر المؤنث، لم يعدلوا عن رصانة قولهم»[٣٣]، ويبدو أن نظرة الباقلاني هذه، تنسجم مع ميل العربي عامة إلى الذكورة، فالمجتمع العربي مجتمع ذكوري، يُعلي من مكانة الرجل على حساب المرأة، فضلا عن النظرة العامة إلى الشعر التي تراه فنًّا ذكوريًّا، وهو «أبوي يمتاز بقوته وسيطرته»[٣٤]، ولهذا فإن الألفاظ الرقيقة لا تليق به ولا تناسبه، بل ينبغي أن يتصف الشعر بجزالة الألفاظ، ورصانة الأسلوب، ونحو ذلك مما يبعده عن الرقة و التخنث، ومن هنا يمكن أن نفهم فخر بعض الشعراء بأن شياطينهم من الذكور، لا من الإناث، يقول أبو النجم العجلي:

---

(32) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٢٨٩.

(33) إعجاز القرآن: ١٦٤.

(34) نفسه: ١٦٨، وانظر أيضًا (ص ١٦٦) تعليقه على بيت امرئ القيس الذي يقول فيه:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة   فقالت: لك الويلات إنك مرجلي

إني و كل شاعر من البشر

شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

فالشيطان الذكر وفق رؤيتهم أقدر على الإلهام، وأبرع في مد الشاعر بالطاقة الشعرية التي تجعل شعره متميزًا، ويأتي في هذا السياق تصنيف الشعراء وفق مقياس الفحولة الذي نجده عند الأصمعي في فحولته، إذ قسم الشعراء ضمن هذا المقياس إلى فحول و غير فحول، وليس يخفى ما في هذا المصطلح، من التركيز على ذكورية الشعر وقوته، لأن فحولة الشاعر «تعني قوة شعره، وسيطرته على المعاني، وحسن سبكه»[٣٥]، ووصف بعض الشعراء بالتخنث في أشعارهم، ليس بدعة جديدة بل هو داء قديم، فقد نعت الأعشى بأنه أخنث الناس في قوله:

قالت هريرة لما جئت زائرها ويلي عليك، وويلي منك يا رجل

والنابغة الذبياني في قوله:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتَّقتنا باليد[٣٦]

ويتناول الباقلاني في بعض نقده للقصيدة الجانب الأخلاقي فيها، فهو يُورد قوله:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق و تحتي شقها لم يحول

ثم يعلق على البيت الأول قائلاً: «... وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله، ويأنف من ذكره» وينتقد البيت الثاني بقوله إنه

(35) الأصول: ٧٨.

(36) تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٥٣.

«غاية في الفحش، ونهاية في السخف، وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح، ويذهب هذه المذاهب، ويرد هذه الموارد، إن هذا ليبغضه إلى كل من سمع كلامه، ووجب له المقت، وهو – لو صدق – لكان قبيحًا، فكيف ويجوز أن يكون كاذبًا»(٣٧). فهو يعيب على امرئ القيس تناوله هذه المعاني التي وصفها بالفحش والتفحش والسخف، ويرى أن أمثال هذه المعاني تُسيء للشاعر، وتنقص من قيمة شعره.

وهذه المسألة خلافية بين النقاد، فقد تناولوها وفصَّلوا القول فيها، وكانت لهم مواقف متباينة منها، فانقسموا إزاءها إلى فريقين: الأول يرى ضرورة التزام الشاعر بمبدأ الأخلاق الحميدة في شعره، وأغلب هؤلاء كانوا من علماء الدين، والقيمين على الدين، والمسؤولين عن تطبيق أحكام الشرع، والحريصين على نشر الفضيلة في المجتمع من أمثال الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين ومن إليهم.

والفريق الآخر وأغلبه من النقاد الذين غلب عليهم الاهتمام بنقد الشعر، من أمثال قدامة بن جعفر في كتابه «نقد الشعر» الذي تناول بيتي امرئ القيس السابقين، مشيرًا إلى أن هناك من عابهما لفحش معناهما، فرد بقوله: «وليس فحاشة المعنى في نفسه، مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداءته في ذاته»(٣٨)، فهو يخالف الباقلاني فيما ذهب إليه، ويرى أن المعوَّل عليه في الشعر، هو الصياغة الفنية، وأسلوب التعبير الذي يؤدي الشاعر من خلاله معانيه المختلفة. وهو يميِّز تمييزًا صارمًا بين المعنى الذي يتضمنه الشعر، وطريقة الأداء التي يلجأ إليها الشاعر في نظمه.

ومن نقَّاد هذا الفريق كذلك، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في

---

(37) الموشح: ٦٦-٦٧.

(38) إعجاز القرآن: ١٦٦-١٦٧.

وساطته، الذي يفصل فصلاً حادًا بين معتقدات الشاعر وشعره، ففي معرض دفاعه عن المتنبي، نراه يهجم هجومًا عنيفًا على أبي نواس، مبيِّنًا تفاوت شعره، واختلاله واضطرابه، ويورد على ذلك الأمثلة الكثيرة من شعره، ثم ينتقل إلى ذكر المتنبي فيقول: ((والعجب ممن يُنقص أبا الطيب، و يغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف في الغقيدة، وفساد في المذهب، كقوله:

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

فلو كانت الديانة عارًا على الشاعر، وكان سوء الاعتقاد سببًا لتأخر الشاعر، لوجب أن يُمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويُحذف ذكره إذا عُدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر.... ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر))(٣٩)، فهو يقرر قرارًا حاسمًا وصريحًا لا لبس فيه ولا غموض، فحواه الفصل الكامل بين الدين والشعر، فالمعنى الذي يتضمنه الشعر شيء، وصياغته الفنية شيء آخر، ولا ينبغي بحال من الأحوال أن نربط بين معتقد الشاعر، والتزامه بالمثل و الفضائل، وبين نظم شعره وطرائقه في الأداء و التعبير، ومن هنا نرى أن ما أخذه الباقلاني على امرئ القيس في هذا الجانب، هو أمر لا تُبيحه جمهرة نقاد الشعر، ولا توافق عليه.

ويمكن أن نلحظ تجنيه المتواصل على القصيدة وعلى قائلها، ومحاولته المستمرة لإسقاطها وإسقاط صاحبها، فهو يقول بعد أن ينتقد عددًا كبيرًا من أبيات القصيدة: ((وإنما يكفي أن نبيِّن أن ما سبق من كلامه... مما لا يمكن أن يُقال إنه يتقدم فيه أحدًا من المتأخرين، فضلاً عن المتقدمين))(٤٠)، وليس

---

(39) نقد الشعر: ٢١.

(40) الوساطة بين المتنبي و خصومه: ٦٣ – ٦٤.

يخفى على عاقل ما في هذا النقد من تجنٍّ وتعسف، فمن ذا الذي يوافق الباقلاني على هذا الذي ذهب إليه؟!

ولم تسلم **الأبيات المعدودة البديعة** من نقده اللاذع كذلك، فقد شن عليها هي الأخرى حملة شعواء، فقد أورد قوله:

وقد أغتدي و الطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معًا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقوله:

له أيطلا ظبي و ساقا نعامة   وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

ثم قال في نقد هذه الأبيات: ((فأما قوله ((قيد الأوابد)) فهو مليح ومثله في كلام الشعراء و أهل الفصاحة كثير، و التَّعَمُّل بمثله ممكن، .... وأما قوله في وصفه ((مكر مفر)) فقد جمع فيه طباقًا وتشبيهًا، وفي سرعة جري الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا وألطف، وكذلك في جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه في بيت واحد صنعة، ولكن قد عُورض فيه، وزُوحم عليه، والتوصل إليه يسير، وتطلبه سهل قريب))(٤١).

فهو في هذا النقد لا يقرُّ للرجل بفضيلة، ولا يعترف له بشيء حسن، وكل ما ذكره النقَّاد على أنه من محاسنه، ومن الأشياء التي ابتدعها وسبق إليها غيره، وكان الشعراء له تبع فيها ومقلِّدون، كل ذلك تحول على يدي الباقلاني إلى شيء يمكن التوصل إليه والتعمل بمثله، وللشعراء غيره ما هو أحسن منه وألطف، وغير ذلك، ناسيًا أو متناسيًا أن قول الشيء ابتداء ليس كقوله تقليدًا، والمبادرة إلى نظم المعنى

(41) إعجاز القرآن: ١٧١.

أولاً، أصعب من محاكاته والسير على نهجه.

ويلخِّص الباقلاني رأيه في هذه القصيدة فيرى أنها تتفاوت في جودتها ورداءتها وسلاستها وانعقادها، كما يوجد له«شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها.... فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه، ورصفه، فإن العقول تتيه وتحار في بحره، وتضل دون وصفه»(٤٢).

وبعد أن انتهى من تحليل القصيدة، أو الكثير من أبياتها إذا أردنا الدقة، عرج على بعض الآيات القرآنية محللاً وشارحًا، ليبيِّن للقارئ الفرق ما بين الكلام الإلهي وكلام البشر، وليوازن بين تلك الآيات وأبيات امرئ القيس، فقال: «ثم اقصدْ إلى سورة تامة، فتصرَّفْ في معرفة قصصها، وراعِ ما فيها من براهينها وقصصها، تأمل السورة التي يذكر فيها النمل، وانظر في كلمة كلمة، وفصل فصل»(٤٣)، ولعل ظاهر الكلام هنا يُوحي بأنه سيقف على السورة كاملة، إلا أن هذا لم يحصل بل اكتفى بالوقوف على بعض آياتها، وآيات أخر من سور أخرى، وهذا ما جعل الدكتور زغلول سلام يتوهم هنا أيضًا فيرى أن الباقلاني كان يتناول السورة من القرآن كاملة ولم يكن يقتصر على آيات محدَّدة، يقول: «من أهم ما يسترعي النظر في منهج الباقلاني لدراسة إعجاز القرآن، اعتبار الوحدة الفنية التي تتضمن موضوعًا واحدًا، ويظهر هذا من تناوله سورة بتمامها، يتدرَّج فيها ليظهر ما تنطوي عليه من خصائص في النظم....»(٤٤).

وأما قصيدة البحتري – التي توخَّى أن تكون أجود شعره – فقد وقف على

---

(42) نفسه: ١٨١ – ١٨٢.

(43) إعجاز القرآن: ١٨٢ – ١٨٣.

(44) نفسه: ١٨٩.

معظم أبياتها، ولم يقف عليها كلها كما سلف أن ذكرنا، وكان صنيعه فيها مماثلاً لما فعله مع قصيدة امرئ القيس، فنقده لهما متشابه، وتحامله عليهما متماثل، ونجده يُكثر في نقده من العبارات العامة غير الواضحة في مؤداها ودلالتها، من مثل قوله: ((هذا البيت فيه ثقل روح، وغيره أصلح له[٤٥]، وهذا مليح جدًا، وتستمر ملاحة ما قبله عليه، ولا يطرد فيه الماء اطراده فيه[٤٦]، وذاك فيه كزازة وفجاجة[٤٧]، وآخر وحش جدًا، قد صار قذى في عين هذه القصيدة، بل وخزًا فيها ووبالاً عليها[٤٨]. هذا كله مع تصريحه بتفضيل البحتري على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه، وتقديمه له ((بحسن عبارته، وسلاسة كلامه، وعذوبة ألفاظه، وقلة تعقد قوله))[٤٩].

وينتهي الباقلاني إلى أن شعر البحتري يمكن أن يوازن بشعر شاعر من طبقته ومن أهل عصره، ومن هو في مضماره أو في منزلته، أما القرآن فإن نظمه ((عال عن أن يعلق به الوهم، أو يسمو إليه الفكر أو يطمع فيه طامع، أو يطلبه طالب))[٥٠].

وعنده أن الشعر عامة ((لا يجوز أن يوازن به القرآن))[٥١]. وهو يعني بذلك

(45) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٢٨٩. وانظره أيضًا ص: ٢٩٢.

(46) إعجاز القرآن: ٢٢٠.

(47) إعجاز القرآن: ٢٢٥.

(48) نفسه: ٢٢٧.

(49) نفسه: ٢٣٠.

(50) إعجاز القرآن: ٢٤٣.

(51) نفسه.

أن الشعر لا يمكن أن يُساوى بالقرآن أو يُعدل به، وليس يعني بذلك الموازنة بين الشعر والقرآن، كما فهم الدكتور إحسان عباس في حديثه عن خطورة منهج الباقلاني في الموازنة بين القرآن والشعر، «لأنه يوحي بالموازنة بين شيئين متباعدين، مع أن الباقلاني حاول جاهدًا أن ينفي الموازنة بقوله....»[٥٢]. وذكر قوله السابق، فسياق العبارة يدل على أن الباقلاني عنى بالموازنة هنا المساواة، ولو كان يريد الموازنة بمعنى المقارنة و المفاضلة لقال (لا يجوز أن يوازن بينه وبين القرآن)، هذا فضلاً عما وجدناه لديه، وعرضناه له من الموازنات بين القرآن والشعر، فكيف يحاول أن ينفي الموازنة بين القرآن والشعر ويفعل ذلك؟ ! بل و يكثر من تلك الموازنات كثرة لافتة للنظر.

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن الموازنة بين القرآن وبين غيره من فنون القول، وأساليب الخطاب، غدت واحدة من الاتجاهات التي سعى العلماء بواسطتها لإثبات إعجاز القرآن وتفوقه على سواه، وهذا ما أشار إليه ابن أبي الإصبع المصري في كتابه (بديع القرآن) فقد أورد بيت السموءل الذي يقول فيه:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم   و لا ينكرون القول حين نقول

ثم قال: «فإنك إذا وازنته بقول الله سبحانه ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣]» تبيَّن لك مابين الكلامين من الفرق، وأمثال هذا الباب كثيرة، وهذا هو أحد وجوه الإعجاز، وهو قياس القرآن بكل معجز من الكلام»[٥٣]، ويبدو لي أن الباقلاني في نقده لقصيدتي امرئ القيس والبحتري،

(52) نفسه: ٢١٥.

(53) بديع القرآن: ٩٦.

قد سلك مسالك وعرة، وتجشم من العناء الشيء الكثير، ليثبت شيئًا لا يُحتاج إثباته إلى مثل ذلك، فمن أراد أن يبرهن على تفوق شيء وتميزه،لا يحتاج إلى أن يسقط غيره، فلا يعترف بفضله، أو يقر بجودته، ولا يضير إعجاز القرآن، أو يطعن فيه، أو يقلل منه أن تكون قصيدة لامرئ القيس أو سواه من الشعراء جيدة وحسنة، ولهذا فإنني أعتقد أن الطريقة المثلى لإثبات الإعجاز تتمثل في الانطلاق من داخل النص القرآني لا من خارجه بقياسه إلى غيره، لأن لكل من القرآن الكريم أو الشعر أو الخطابة أو فن الترسل أو غير ذلك من فنون القول، وأنواع الخطاب عند العرب، خصائص تميزه من غيره، وصفات تجعله يختلف فيها عن سواه في بعض الجوانب، ولذلك فالموازنة فيما بين هذه الأساليب أمر قد لا يخلو من بعض المزالق، وقد يدفع بالناقد الموازن إلى بعض التمحل الذي يؤدي إلى الابتعاد عن المنهج العلمي الصحيح، وإصدار بعض الأحكام النقدية المجحفة بحق هذا النص أو ذاك،هذا مع التنبيه على ما بين هذه الأنواع من الاشتراك في بعض السمات، والتشاكل في بعض الخصائص، كونها تنتمي إلى ميدان واحد هو الأدب بمفهومه الواسع الذي يشمل الشعر و النثر بأنواعه المختلفة، ولكن هذا لا ينفي –كما سلف أن ذكرنا – أن يختص كل فن قولي بخصائص ينفرد بها عن سواه، ويتميز بها عن غيره من الفنون الأخرى. ومن العسف الشديد أن نطبق على الشعر خصائص الخطابة مثلاً، أو بمعنى آخر أن نطلب من فن الخطابة أن يتضمن خصائص فن الشعر أو العكس، و من ثم نسقط في معرض الموازنة هذا النص أو ذاك لمصلحة نص آخر غيره، يباينه في أسلوبه، ويفارقه في خصائصه وطبيعته وماهيته وأهدافه.

ولم يقف الباقلاني في موازنته بين القرآن والشعر عند قصيدتي امرئ القيس

والبحتري فقط، وإن كان قد أنفق فيهما معظم جهده ووقته، وشكَّلتا عماد موازنته ولبابها، بل تعرَّض لبعض القضايا الأخرى، فوازن بين ما ورد منها في القرآن وما يقابله في الشعر، وأهم هذه القضايا القصص في القرآن الكريم، فأورد عددًا من الآيات من سورة القصص، ثم بعض الآيات من سورة الشعراء والتي تحكي قصة موسى عليه السلام، ولكنه لم يقف عندها محلِّلاً أو مبيِّنًا لما فيها من وجوه البلاغة والفصاحة والبراعة، بل اكتفى بسرد بعض الملاحظات العامة، وإطلاق الأحكام النقدية غير المعللة، فقد أورد مثلاً قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾[القصص: ٨١]، ثم قال: «هذه ثلاث كلمات، كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر»(٥٤).

ويلخِّص لنا رأيه في قصص القرآن فيقول: «كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلَّفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته، ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم، ونفور الطبع، وشِرَاد الكلام، وتهافت القول، وتمنع جانبه، وقصورك في الإيضاح عن واجبه، ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة إلى قصة، وفصل إلى فصل، حتى تبتر عليك مواضع الوصل، وتستصعب عليك أماكن الفصل، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة، و أمثالاً سائرة، وحكمًا جليلة، وأدلة على التوحيد بيِّنة، وكلمات في التنزيه والتحميد شريفة»(٥٥).

فقصص القرآن تتميَّز عند الباقلاني بالإيجاز، وسهولة النظم، والدقة في

---

(54) إعجاز القرآن: ١٩٤.

(55) نفسه: ١٩٤ – ١٩٥.

التعبير عن المراد، وتقديم المعنى تقديمًا واضحًا، وحسن الانتقال، إضافة إلى ما تتضمنه في تضاعيفها من المواعظ والحكم والأمثال وغير ذلك، وهذا كله لم يجده الباقلاني في أشعار الشعراء، فقد وجد أنهم مقصِّرون في هذا الجانب تقصيرًا كبيرًا، و ليس لهم في هذا الباب ما قد نجده لهم في أغراض الشعر المختلفة، يقول: «وإن أردت أن تتحقق ما وصفت لك، فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه في المديح والغزل والفخر والهجو يجري مجرى كلامه في ذكر القصص؟ إنك لتراه إذا جاء إلى وصف وقعة أو نقل خبر، عاميَّ الكلام، سُوقيَّ الخطاب، مسترسلاً في أمره، متساهلاً في كلامه، عادلاً عن المألوف من طبعه، وناكبًا عن المعهود من سجيته، فإن اتفق له في قصة كلام جيد كان قدر ثنتين أو ثلاثة، وكان ما زاد عليها حشوًا، وما تجاوزها لغوًا»[٥٦].

فهو يفرق بين النظم في أغراض الشعر المعروفة كالمديح والغزل والفخر وغيرها، ونظم القصص الشعرية، بما تتضمنه من وصف الوقائع أو سرد الأخبار وغيرها، ويرى أن النظم في أولاها أسهل من النظم في ثانيتها، فالشعراء يجيدون القول في الفنون الشعرية المختلفة ويحسنون فيه، في حين أنهم لا يفلحون في نظم القصص في أشعارهم، وتجدهم – حتى المفلقين منهم – لا يجيدون الخطاب، ولا يحسنون التعبير، وينخفض مستوى الإبداع لديهم، بخلاف قصص القرآن الكريم التي تتفوق على قصص الشعر نظمًا وأسلوبًا وفصاحة وبلاغة.

ولم يُورد الباقلاني بعض النماذج الشعرية التي تتضمن بعض القصص،

(56) إعجاز القرآن: ١٩٥.

فيتناولها بالتحليل والدرس ومن ثم يوازن بينها وبين قصص القرآن، ليعرفنا من خلال ذلك مقدارَ الفرق بينهما، من جهة الصياغة والأسلوب وتناول الأحداث وكيفية التعبير عنها ونحو ذلك، بل اكتفى بما سلف أن ذكرناه له دون تفصيل.

وأود أن أُشير في هذا المجال – و هذا ليس من باب الدفاع عن الشعر بمقدار ما هو تذكير بحقيقة قد لا يجهلها أحد من المشتغلين في الحقل الأدبي – إلى أن القصة في الشعر العربي قليلة بوجهٍ عام، و لا نقع على الكثير منها لدى الشعراء، الذين لم يهتموا بها الاهتمام الكافي، ولم يولوها من العناية ما ينبغي، وربما يعود ذلك إلى تقيد الشاعر بالوزن الشعري، وبالقافية الواحدة، وبالروي الواحد، وهذا ما يحد من قدرة الشاعر على الاسترسال وسرد الأحداث، إضافة إلى غلبة الطابع الغنائي الوجداني على الشعر العربي منذ القديم، هذا مع الإشارة إلى أننا نجد بعض القصص في الشعر الجاهلي مثلاً، كقصة الثور الوحشي، وقصة حمار الوحش[٥٧]، وكذلك ما نجده من قصص المغامرات مع النساء عند امرئ القيس، التي تابعه فيها بعض الشعراء وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة. ولكن هذا النوع من الشعر يبقى قليلاً نسبيًّا، ومقصرًا جدًّا إذا قيس بما ورد في القرآن الكريم من قصص.

نتائج البحث:

١– اعتمد الباقلاني في تضاعيف نقده على مبدأين اثنين يتضحان للقارئ المدقق وهما: **النفي والإثبات،** فهو إما أن ينفي أمرًا ليثبت آخر، وإما أن يثبت

(57) انظر في تفصيل ذلك كتاب (قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء و التجديد) ص (١٢٥) وما بعدها.

أمرًا لينفي آخر.

٢- توزَّع نقده ما بين النقد الموضوعي، والنقد الذاتي، أما نقده الموضوعي فنجده في بعض قراءاته وتأويلاته للآيات القرآنية، وكذلك في بعض نقده للفنون الأدبية عامة، والشعر خاصة، إذ نراه يقدِّم المقدمات المنهجية السليمة لينتهي بعد ذلك إلى النتائج المنطقية التي تؤدي إليها تلك المقدمات، وتراه في هذا النقد يقدِّم الأدلة على ما يقول، ويورد التعليلات الفنية المناسبة لما يذهب إليه في نقده للنصوص المختلفة، وأما نقده الذاتي - ولعله الغالب على نقده - فقد كثر عنده كثرة لافتة، وتجلَّى فيه اعتماده على ذوقه الخاص، وانطباعاته الشخصية في قراءة النصوص، مما أدى به إلى التحامل والتجني والظلم، وأوقعه في التعسف، وأبعده في كثير من الأحيان عن الموضوعية في تأويلاته وقراءاته عامة، وفي تحليله لقصيدتي امرئ القيس، والبحتري خاصة، فقد أسرف في نقده لهاتين القصيدتين في استعمال العبارات العامة، التي لا تُفصح عن مفهومها، ولا تبين عن دلالاتها، إلا بعد لأي و عنت شديدين، وقد لا تفعل البتة، فتبقى المقاصد حبيسة في ذهن صاحبها، والدلالات رهينة بما يرمي إليه قائلها، ومن هنا فقد خلَّف ثروة طائلة من العبارات الطنانة والرنانة، وقد أشارت الدكتورة عائشة عبد الرحمن إلى شيء من هذا، منبِّهة على تأثيره فيمن جاء بعده ممن بحثوا في الإعجاز، تقول: «ويمضي الباقلاني بعد أن ترك للبلاغيين ممن تكلموا في الإعجاز بعده، هذا الرصيد الضخم من ألفاظه الرنانة، و عباراته الفخمة، في النصاعة والبراعة، والفخامة والسلاسة، والنضارة والغضارة، والرونق والماء، والحسن والبهاء...»[٥٨].

---

(58) الإعجاز البياني للقرآن: ١٠٦.

٣- ونتيجة لاعتماده على النقد الذوقي أيضًا، فقد كثرت لديه الأحكام النقدية العامة غير المعللة، والتي لا تعتمد على أسس فنية دقيقة، ولا تستند إلى أسس علمية واضحة في دراسة النصوص.

٤- اعتمد الباقلاني على منهج الموازنة في نقده، وفي محاولته إثبات الإعجاز القرآني، ولهذا فقد وجدنا عنده نمطًا ثالثًا من النقد، هو النقد التحليلي أو التطبيقي، الذي اهتم به اهتمامًا فائقًا، وعُني به عناية كبيرة، من خلال دراسته لقصيدتي امرئ القيس والبحتري، والموازنة بينهما وبين القرآن الكريم. ومع أن هدفه من ذلك كان إثبات الإعجاز القرآني، وتفوقه على هاتين القصيدتين فضلاً عن سواهما من شعر، فإنه أسهم إسهامًا كبيرًا في توجيه أنظار النقَّاد إلى التوسع في النقد التطبيقي والاحتفال به، ومحاولة دراسة القصيدة كاملة أو معظمها وتحليلها، وعدم الاكتفاء بالوقوف على البيت أو البيتين أو الأبيات القليلة منها، كما كان يفعل معظم النقاد الذين سبقوه، وقد أشار الدكتور طه حسين إلى شيء من هذا في حديثه عن نقاد أبي تمام والبحتري والمتنبي إذ يقول: «إنكم لا تجدون أحدًا من هؤلاء النقاد ينقد القصيدة من حيث هي قصيدة، فهم إذا قرؤوا أجمل قصائد أبي تمام والمتنبي والبحتري لا ينظرون إليها جملة، كيف استقامت ألفاظها ومعانيها وأسلوبها، وإنما يقفون عند البيت أو البيتين...»(٥٩)، وهذا من جديده الذي يُحسب له، ويُثنى به عليه.

٥- اتضح موقفه العدائي من مذهب البديع، فهو لا يراه الوسيلة المناسبة لإثبات الإعجاز القرآني، ولا يمكن الاعتماد عليه في هذا الباب، لأنه يمكن

(59) من حديث الشعر والنثر: ٢٩٥.

تعمله وإتقانه بالتعلم والدربة والممارسة، وهذا ينسجم مع نفوره من مذهب الصنعة والتكلُّف بوجه عام، ولهذا نجده يفضِّل البحتري على كثير من الشعراء ولاسيما من يغلب عليهم التصنع في أشعارهم، ويكثر البديع لديهم كثرة مفرطة، ولهذا أيضًا اختار إحدى قصائده، بوصفها ممثلة للشعر الجيد عامة، ولأفضل شعره خاصة، ليوازن بينها وبين القرآن الكريم.

٦– أفرغ معظم جهده واهتمامه للموازنة بين القرآن الكريم والشعر، وذلك لأنه يرى «أن معظم براعة كلام العرب في الشعر، ولا نجد في منثور قولهم ما نجد في منظومه.... وهو – أي الشعر – وإن ضيِّق نطاق القول، فهو يجمع حواشيه، و يضم أطرافه ونواحيه، فهو إذا تهذَّب في بابه، ووُفِّي له جميع أسبابه، لم يقاربه من كلام الآدميين كلام، ولم يعارضه من خطابهم خطاب»[٦٠]، ولهذا الذي يراه فإنه لم يطل الوقوف على فنون القول الأخرى، واقتصر على إيراد عدد كبير من خطب الرسول ﷺ والصحابة الكرام، دون نقد أو تحليل أو تأويل، وفي معرض الموازنة بين القرآن والشعر، وقع الباقلاني فيما لا تُحمد عقباه، وظهر التجني والتعسف في نقده ظهورًا واضحًا، وحاول جاهدا أن يُسقط قصيدتين اثنتين، هما في نظره من عيون الشعر، ومن أجوده وأروعه، وهما مما أجمع الناس على جودتهما وبراعة صاحبيهما وتميزهما في ميدان الشعر، الأولى لامرئ القيس، والثانية للبحتري، دون أن يتنبَّه على مسألة هي في غاية الأهمية من وجهة نظري، تتمثَّل بالاختلاف والتمايز بين الأنواع الأدبية المختلفة، إذ إن لكل فن قولي، ونوع أدبي، ماهيته و طبيعته وأهدافه ووظيفته وخصائصه، وهذه العناصر هي التي تجعل الأنواع الأدبية تختلف فيما بينها

---

(60) إعجاز القرآن: ٢٣٦– ٢٣٧.

اختلافات تقل حينًا وتكثر حينًا آخر، على الرغم من القواسم المشتركة الكثيرة التي تربط فيما بينها، بسبب انضوائها جميعًا تحت مسمى الأدب. ولهذا كله فإنه ينبغي للناقد الموازن توخّي الحذر الشديد في أمثال هذه الموازنات، والابتعاد عن الذاتية المفرطة، والأفكار القَبْلِيَّة، المسلّم بها سلفًا، والتي تجعل الناقد ينحرف عن مسار النقد الموضوعي الذي يجب أن يتحلى به في نقده، و يتسم به في أحكامه النقدية على النصوص الأدبية المختلفة، هذا مع تحفظي الشديد الذي يكاد يصل إلى درجة الإنكار، على إمكان الموازنة أو المقارنة بين نوعين أدبيين مختلفين، فمنهج الموازنة الصحيح فيما أرى، هو الذي يوازن بين نصوص مختلفة، من فن قولي واحد.

٧– إن إعجاز القرآن الكريم حقيقة راسخة، لا يشك فيها إلا معاند، ولا ينكرها إلا جاحد، وتفوقه على أساليب الكلام عند العرب، وفنون القول لديهم، أمر ثابت لا مراء فيه، وقد سلك العلماء طرقًا شتى، واتبعوا وسائل متعددة لإثبات الإعجاز القرآني، وظهرت في هذا الميدان نظريات كثيرة، حاول كل منها أن يُثبت الإعجاز ويدلل عليه، بطريقة تختلف عن الأخرى، وكان من ذلك موازنة القرآن بغيره من فنون القول كما أسلفت قبل قليل، وكما فعل الباقلاني وآخرون سواه، وما أود أن أنبّه عليه هنا، هو أنه لا ينبغي أن يكون هاجس الناقد الموازن إسقاطَ هذا النص شعرًا كان أم نثرًا، لمصلحة القرآن الكريم، و التدليل على إعجازه من وراء ذلك، لأن إثبات الإعجاز القرآني لا يقوم، ولا ينبغي أن يقوم على التقليل من أهمية النصوص الأدبية، ونفي الجودة عنها، وهدم أركانها، ولاسيما ما عُرف منها بالتميز والتفوق، ولأن إثبات الإعجاز كذلك لا يتطلب ركوب مثل هذه الطرق الوعرة، والمسالك الجافية. ولا يضير إعجاز القرآن أن يكون هذا النص أو ذاك متفوقًا أو متميزًا في بابه، أو أن يكون هذا الشاعر أو الأديب بارعًا

ومتقدِّمًا على أشباهه ونظرائه، لا بل إن ذلك قد يعدُّ دليلاً على تأثر هؤلاء المبدعين بأسلوب القرآن، واستلهامهم طرائقه في الأداء، ووسائله في التعبير، لأنه ما من مبدع في ميدان الأدب إلا وقد تَلْمَذَ كثيرًا أو قليلاً لأساليب القرآن الكريم وطرائقه.

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري. د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦١.

٣ – الأصول – قراءة جديدة لتراثنا النقدي – د. تامر سلوم، دار الحقائق، سورية، ١٩٩٣م.

٤ – الإعجاز البياني للقرآن و مسائل نافع بن الأزرق. د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، د. ت.

٥ – إعجاز القرآن. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (٤٠٣هـ) شرح وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ١٤١١ – ١٩٩١.

٦ – بديع القرآن. ابن أبي الإصبع المصري (٦٥٤هـ) تحقيق: د. حفني محمد شرف، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٣٧٧ – ١٩٥٧.

٧ – بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (٣٨٨هـ)، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، د. ت.

٨ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب – نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري – د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٤٠١ – ١٩٨١.

٩ – ديوان امرئ القيس. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨.

١٠ – ديوان البحتري. تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، ط٣، د. ت

١١ – طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ) قرأه و شرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، د. ت.

١٢ – قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد. د. وهب رومية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨١.

١٣ – لسان العرب. ابن منظور المصري (٧١١هـ) دار صادر، بيروت، د. ت.

١٤ – من حديث الشعر والنثر. د. طه حسين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١.

١٥ – الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر) أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (٣٨٤هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، ١٣٨٥ – ١٩٦٥.

١٦ – نكت الانتصار لنقل القرآن. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (٤٠٣هـ)، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، د. ت.

١٧ – النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٦هـ)، حققها و علق عليها: محمد خلف الله، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، د. ت.

١٨ – نقد الشعر. قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي،– القاهرة، ١٣٩٨ – ١٩٧٨.

١٩ – الوساطة بين المتنبي وخصومه. القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٦٦هـ)، تحقيق و شرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه، مصر، ط٣، د. ت.